حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا فى كثير ولا قليل أن نعلم ما هى الكهرباء فى ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الكهرباء هو ما تعمله وما تؤديه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المشاكل الفكرية التى أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانبا كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التى تنشأ عنها فى حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظا جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

يتبع زكى نجيب محمود

أندلسيات :

١ ــ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

تمهيد :

أما وقد خطت « الرسالة » هذه الخطى الرغيبة الموفقة ، وبلغت المبالغ فى الفخامة والضخامة والطرافة والاحسان ، والحشد والاحتفال ، والعناية بالدراسات الأدبية الممتعة الموفقة ، والترحيب بكل ما يقدم إليها من الموضوعات القيمة الفائقة ، فلماذا لا ألقى دلوى أنا الآخر فى الدلاء ، وأنشر فى « الرسالة » من الآن شيئاً مما تنطوى عليه أضابيرى الأندلسية الزاخرة بشتى الموضوعات فى هذا الفردوس الاسلامى المفقود ــ كما كان يسميه فقيد المروءة صديقنا المرحوم أحمد زكى باشا ــ فمن ترجمة أديب إلى قصة شاعر إلى تاريخ فيلسوف إلى حياة عالم إلى طرفة أدبية إلى نبذة فلسفية إلى تحفة علمية إلى شطحة صوفية ، إلى ما شئت مما تهيأ لى أن أعكف على دراسته منذ نيف وثلاثين عاماً حتى صرتُ أطول له عِشرة ، وأبطنَ به خبرة . . . ولا تسلنى لماذا تولدت هذا التولع بدراسة الأندلس وكل ما يمت إلى الأندلس بسبب ، فذلك ما أجهل أنا أيضاً علته . . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف وقضى الله أن أكون ممن شغفه حباً هذا الفردوس الذى إذا أنت حاولت أن تنزه نفسك بين رياضه النضرة الزهرة المثمرة ، تجتلى أنوارها ، وتجتنى من أنم أثمارها ، وتستمع إلى تغريد بلابلها ، وتتروّى من رحيق جداولها ، ألفيت ما يبعث له عجبك وإعجابك ، وتشتهى مذاقه حتى يسيل له لعابك ، ويتأرج عبيرُه المفغَّم فيملأ خياشيمك طيباً ، ويستخفُّك تغريده النغم فتترنح له تطرباً ؛ بيدَ أنك إذا أنت حاولت هذا الامتاع من طريق الأسفار التى وضعت فى الأندلس قديماً لقيتَ من الألاق ما لقيت مما لا يكاد ينهض به الا الأفرادُ أوتوا من الشوق ما يجلدُهم على معاناة البحث والتنقيب والارتياض بتذليل كل صعب عسير . ومن ثم استخلصت لك من نادرة الأسفار ، ومغربة الأخبار ، باقة جمعت مختلف الأزهار ، وسفطاً يحتوى شتى الأثمار ، وساكباً يسمعك أحسنَ النغم ، وناجوداً تحتسى منه شراباً لا إثم فيه ولا لم أوَّه لقد شط القلم ، وسجعت ثم سجعت ، وتلك التى تسنك منها المسامع ... ومن عذيرى من الفتح بن خاقان إذا هو أعدانى بسجعه ، وتأثر طبى بطبعه ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع ؟ ولكن لا تُرَع فسوف أتجنب السجع ما أمكننى تجنبه ، وكذلك لا تتوقع ما دمت بصدد هذا الفتح أن ستسمع سجعاً أندلسياً كثيراً قد يضجرك ويسلمك إلى السأم والملال . فسوف أتحشم كل أولئك بما يلطفه ويسيغه إن شاء الله . . .

وإذا كنت أقدم بين يدى كلماتى قصة الفتح بن خاقان فليس ذلك عن قصد قاصد ، ولعل الذى وجّه الذهن اليه الآن هو ما أخذته عينى أخيراً فى بعض التواليف الحديثة الموضوعة فى بلاغة العرب فى الأندلس لبعض أصدقائنا من أساتيذ الجامعة إذ يقول : إنه لم يترجم للفتح بن خاقان غير ابن خلكان ، وأن المقّرى لم يترجم له فى نفح الطيب . . . مع أن المقرى ترجم له كما ترجم له غير واحد . . . واليك بعد ذلك قصة هذا الأديب الأندلسى :

الفتح بن خاقان

ظهر أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسى الاشبيلى فى عصر هو من خير العصور ومن شر العصور فى وقت معاً : كان عصراً ذهبياً من ناحية الثقافة ، إذ كان عصراً يفهق بكل أنواع المعارف ، من علم وأدب وفلسفة ، وكان فى الوقت ذاته عصر اضطراب سياسى مزعج . . وكانا الأندلسيون زمن ملوك الطوائف متمتعون بحرية لاحد لها ، يتبجحون فيها ما شاء لهم التبجح ، ويلاقى مُتشَقشِقوهم من ملوكهم أقصى غايات الأريحية

والأكرام يعيشون في أفنائهم عيشاً تلين لهم مثانيه ومعاطفه ، وتدنو عليهم مجانيه ومقاطفه ، إذ أن ملوكهم كانوا كذلك أدباء أفاضل ، وعلماء أماثل ، أثرت فيهم الحضارة الأندلسية أثرها ، فرققت من حواشيهم ، وألانت من جوانبهم — بينما هم كذلك ، وجفون الخطوب عنهم نيام ، إذ قلب لهم الدهر الخؤون ظهر المجن ، ولبس لهم جلد النمر ، فكالب عليهم الأسبانيون من الشمال ، وطمع فيهم برابرة العُدوة — مراكش — من الجنوب ، فغزاهم المرابطون الخشنون وأزالوا ملكهم ، فاستحالت حال الأندلسيين ولا سيما في زمن علي بن يوسف بن تاشفين ذلك الملك الذي كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين كما يقول المراكشي صاحب المعجب ، ويقول عنه أيضاً : واشتد إيثاره — أي إيثار علي بن يوسف بن تاشفين ملك مراكش والأندلس — لأهل الفقه والدين فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، وكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم . وفي ذلك يقول ابن البنّي — شاعر أندلسي سنترجم له : —

أهل الرياء لبستمو ناموسكم … كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك … وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب
وبأصبغ صبغت لكم في العالم

« ابن القاسم وأشهب وأصبغ هم من أئمة مذهب الإمام مالك الذي كان المذهب الوحيد المعمول به في المغرب والأندلس »
إلى أن يقول : « ولم يكن يُقرَّبُ من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ عِلْمَ الفروع أعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله « صلعم » فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء . ودانَ أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام — التوحيد — وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه . ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله (١) أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد حتى سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها . واشتد الأمر في ذلك » ثم قال : ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبي القاسم بن الجد ، وأبي بكر محمد المعروف بابن القبطرنه ، وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون — صاحب القصيدة المشهورة التي رثى بها بني الأفطس من ملوك الطوائف والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر … فما البكاء على الأشباح والصور

« وسترى تراجم هؤلاء الأفاضل قريباً » في جماعة يكثر ذكرهم . إلى أن قال : ولم يزل أبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخّر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن ردمير هزيمة قبيحة ، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها . أحسن فيها ما شاء ، منعني من إيرادها ما فيها من الطول : وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله : أي بني اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلامَ يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؛ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقاباً (٢) ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم . . . في أمثال لهذا القول فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبي عبد الله أخيه : كنا في شك من بغض أبي مروان

(١) يريد كتبه التي في علم الكلام والمنطق والجدل على طريقة الفلاسفة
(٢) إذ كانوا ملثمين

المرابطين والآن قد صح عندنا . فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة ، ثم قال : واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فبادر كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالأمر منه . . . وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه ، وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس .

* * *

. نجم أبو نصر الفتح بن خاقان في هذا العصر الذي هو كما أسلفنا من خير العصور الأندلسية من ناحية الثقافة واكتظاظ الأندلس بالعلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء ، وفي الوقت ذاته هو من شر العصور إذ كان عصراً سياسيا سخيفاً كما ترى

ولد الفتح بن خاقان سنة ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م ، أي قبل أن يدال للمرابطين من ملوك الطوائف بسنتين . أما وفاته فقد اضطربت فيها كلمة المؤرخين فحكى ابن خلكان أنها كانت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة - ١١٤٠ م - وقال ابن الأبار القضاعي في معجم أصحاب الصدفي إنه توفي ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به ، وقال الوزير الخطير لسان الدين بن الخطيب إن وفاته كانت ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام ٥٢٩ والفرق بين ما رواه ابن الأبار وبين ما رواه لسان الدين بن الخطيب هو قريب من أربعة أشهر كما ترى . على أن ابن خلكان حكى ما رواه لسان الدين بن الخطيب أيضاً . . . وقال لسان الدين بن الخطيب : وأبو نصر الفتح بن خاقان من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب [1] . وبضم كلام لسان الدين هذا إلى قول الحجاري في المسهب في حق الفتح : طلع من الأفق الأشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها - يبدو لنا أن قرى يحصب هذه من كورة إشبيلية ، وقد تكون من كورة أخرى من كور الأندلس نزح منها الفتح إلى إشبيلية واتخذها مقاماً له ؛ وقد يريد لسان الدين بن الخطيب أن أصل الفتح من هذه القرية ، أما هو فقد ولد بأشبيلية بعد أن نهد اليها آباؤه الأقربون وأقاموا بها ؛ وأياً كان مسقط رأسه فقد نشأ في أشبيلية وفيها كما يظهر أخذ الأدب - كما يحدثنا لسان الدين بن الخطيب - عن أبي بكر بن سليمان بن القصيرة - أحد مشهوري الكتاب وستري ترجمته - وابن اللبانة من كبار شعراء الأندلس ، وأبي محمد بن عبدون الشاعر الكاتب صاحب قصيدة : الدهر يفجع بعد العين بالأثر ، وابن دريد الكاتب وأبي جعفر بن سمدون الكاتب ، وأبي الحسن بن سراج ، وأبي خالد بن تستغير ، وأبي الطيب بن زرقون وأبي عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبي عبد الرحمن بن طاهر ، وأبي عامر بن سرور وأبي الوليد بن حجاج . هكذا سرد مشيخته لسان الدين بن الخطيب

نشأ الفتح بن خاقان نشأة أدبية كما ترى ، ومن ثم غلب عليه الأدب حتى انصرف اليه عن كل ما عداه ولم يؤثر عنه من المعارف سواه ، قال ابن خاتمة : إنه لم يعرف من المعارف بغير الكتابة ، والشعر ، والآداب [1] . أقول : وقلما ترى أديباً أندلسياً إلا وله مشاركة في كثير من العلوم الدينية وغير الدينية . على أن قارئ الفتح بن خاقان يرى أنه واسع الاطلاع إلى أقصى حد ، وأنه أديب كل الأديب وأن معارفه العامة وثقافته الشاملة التي لا بد منها للأديب في تلك العصور متوافرة . وإليك أقوال مترجميه : قال لسان الدين بن الخطيب : كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعوباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب الحلى والصفات . وقال في موضع آخر : وشعره وسط ، وكتابته فائقة . وقال ابن سعيد في المغرب : نخر أدباء أشبيلية بل الأندلس ذكره الحجاري في المسهب ، الدهر من رواة فلائده ، وحملة فرائده . طلع من الأفق الأشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان في الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ، إلى أن قال : وهو وأبو الحسن علي بن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدا ، وعلماً مفيداً ، وإطنابا

(١) قال صاحب القاموس يحصب كيضرب قلعة بالأندلس قال شارحه سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير . ثم ذكر ناسا ينسبون اليها منهم القاضي عياض صاحب الشفاء وهو الذي أقام حد السكر على الفتح كما سيمر بك

(١) هكذا جاء في نفح الطيب ولعل ابن خاتمة يريد بقوله هذا أنه لم يؤثر من الفتح إلا الكتابة والشعر وما هو منهما بسبيل